اختلاف العلماء

إن العلـم يعتمـد على النظرية والتجريب، ويمكـن أن يتم بعد فترة زمنية إثبات النظرية فتتحول إلى قانون. وعدم القدرة على إثبات النظرية لا يعنـى خطأها. ولكن تبقى التجربة وما تسـفر عنه هى الحقيقة التى لا يمكن إنكارها وهى أقوى من النظرية والقانون.

اختلاف علماء الغرب

كان هنـاك دائما اختلاف بـين العلماء، وخاصـة النظريين منهم، مـع العلماء التجريبيـين أو العمليين فى كثير مـن الأحيان. مثال ذلك عالم الفيزياء النظرية المعاصر الانجليزى الأصل سـتيفن هوكنج Steven Hawking فى نظرياته عن نشـأة وتطور الكـون. لقد حارب نظرياته العديد من العلماء التجريبين بل والنظريين أنفسـهم، وقد حاربته بعض المؤسسـات العلمية المهمة على مستوى العالم. ومازالت نظريات ستيفن هوكنـج بدون تجريب أو إثبات عملى على صحتها حتى الآن، وبالتالى تظـل نظرية وليسـت قانونا. لكـن لم يصل هذا الخلاف بـين العلماء الغربيـين وبعضهم إلى حد القذف أو التطاول كما يحدث فى مجتمعاتنا حين نختلف. من المعلوم أن سـتيفن هوكنـج صاحب نظرية الأوتار فى ميكانيكا الكم لفهم نشـأة الكون، وله نظريات فى الثقوب السـوداء فى الكـون، ويقول فى كتابه الأخير «الكون فى قشـرة جوز» إن الكون بدأ فى شكل كريّة مفلطحة فى أجزاء منها، تشبه قشرة الجوز فى حجمها

وشكلها وإن الثقوب السوداء لم تعد كاملة السواد، وإنما هى تشع وتتبخر لتتلاشى، وحيث ينشأ الكون من بذرة حجمها وشكلها كثمرة جوز حسب نظرية هوكنج.

الخلاف الذى كان قائما بين العالم الانجليزى إسحق نيوتن Isaac Newton والعالم الألمانى جوفريد لايبينتز Gottfried Leibniz فى أحقية كل منهما فى اكتشاف علم التفاضل كان فيه بعض المغالاة من نيوتن، إلى أن وصل هذا الخلاف إلى مرحلة متدنية من نيوتن باتهام لايبنتز بالسرقة العلمية. حقيقة كان هناك شجار بينهما ولكن لم يصعد لأكثر من بعض الاتهامات، وبدون قضاء أو قضايا أو تصفية أو إقصاء أو عمليات تكفير كما يحدث فى بلادنا. من المعلوم أن الجاذبية وقوانين الحركة كلها كانت من نظريات وإبداعات نيوتن وكان لايبنتز متميزا فى القوانين والمفاهيم الأساسية لعلم التفاضل والتكامل وبالفعل قد تصدى لها أيضا نيوتن ولكن لايبنتز كانت مفاهيمه أكثر وضوحا. أيضا صامويل كلارك تلميذ نيوتن قد تصدى مع أستاذه للهجوم على لايبنتز وأخذ يفند عيوبه وسقطاته بطريقة غير مرضية، ويمكن أن تكون تلك الصراعات قد بدأت نتيجة لتدخل كليهما فى الكتابة فى تبسيط العلوم وتعرضهما للدين أحيانا. فيقول نيوتن «لقد تمنيت لو تعمل مبادئ نظام الكون على غرس الاعتقاد بوجود إله لدى البشر»، وقال «إن هذا الاتساق المعجز فى نظام الكواكب لابد أن يكون له فكرة الاختيار». وعلى الرغم من هذا، أصر نيوتن على أنه لابد حتما من التدخل الإلهى فى آخر الأمر لإصلاح هذا النظام، نظرا للنمو البطىء للتقلبات. وقد سخر منه لايبنتز متجنيًا فى هذا الأمر قائلا «يلزم الرب أن يضبط ساعته بين الحين والأخر وإلا توقفت عن الحركة. يبدو أنه لم يكن لديه البصيرة الكافية ليجعل حركتها دائمة».

من المعلوم أن إسحق نيوتن (١٦٤٣ – ١٧٢٧) كان فلكيا وفيزيائيا وواحدًا من العلماء الأكثر تأثيرا فى تاريخ البشرية. ويعد كتابه «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» والذى نشر عام ١٦٨٧ من أكثر الكتب تأثيرا فى تاريخ العلم ووضع أسس لمعظم نظريات الميكانيكا الكلاسيكية. فى هذا الكتاب، وصف نيوتن الجاذبية العامة وقوانين الحركة الثلاثة، التى سيطرت على النظرة العلمية إلى العالم المادى للقرون الثلاثة التالية لوفاته. أوضح «نيوتن» أن حركة الأجسام على كوكب الأرض والتى لها أجرام سماوية تحكمها مجموعة القوانين الطبيعية نفسها عن طريق إثبات الاتساق بين قوانين كبلر الخاصة بالحركة الكوكبية ونظريته الخاصة بالجاذبية، ومن ثم إزالة الشكوك المتبقية التى ثارت حول نظرية مركزية الشمس مما أدى إلى قيام الثورة العلمية. وفيما يتعلق بالميكانيكا، قنن «نيوتن» مبادئ بقاء الطاقة الخاصة بكل من كمية الحركة وكمية الحركة الزاوية. وفى علم البصريات، اخترع «نيوتن» أول تلسكوب عاكس علمى. بالإضافة إلى ذلك، صاغ قانونا للتبريد ودرس سرعة الصوت. وشارك «نيوتن» «لايبنتز» فى تطوير حساب التكامل والتفاضل الذى أثار بينهما المشاكل. كما أثبت أيضا نظرية ذات الحدين المعممة. تظل مكانة «نيوتن» الرفيعة بين العلماء فى أعلى مرتبة. وكان نيوتن تقيا متدينا علي الرغم من أنه لم يكن متفقا مع الأعراف الدينية القائمة، وكان مؤلفا للعديد من الأعمال فى تفسيرات الكتاب المقدس، وممكن أن تكون أكثر مما أنتجه فى العلوم الطبيعية، والتى لم ينس العالم إسهاماته بها حتى الآن. ومن المعلوم أن هناك الكثيرين أيضا ممن اتهموا نيوتن بأنه ملحد.

يمكن القول إن هناك خمسة علماء لعبوا دورا أساسيا فى نقل أوروبا من مرحلة التخلف إلى مرحلة النهضة. هؤلاء العلماء هم البولندى كوبرنيكوس، والدنماركى تايكو براهه، والألمانى جوهانز كبلر، والإيطالى جاليليو جاليلى، والانجليزى إسحق نيوتن. ولعل أكثر هؤلاء العلماء تأثيرا هو كوبرنيكوس لأنه هو صاحب النظرية الأولى التى زلزلت كيانات الجمود القائمة فى عصره وهى مركزية الشمس ودوران الأرض حولها. إن نتائج نظريات كوبرنيكوس قد تخطت حدود الفلك لتؤثر فى الدين والسياسة والفلسفة والثقافة الإنسانية كلها. وقد أثبت خطأ نظرية بطليموس- أرسطو التى استمرت أكثر من ٢٠ قرنا دعمتها الكنيسة. وجعلت مجرد التشكيك فى هذه النظرية كفرا. إذن الأرض تدور حول الشمس والأرض ليست مركز الكون بل كانت كل هذه السنين الماضية على خطأ. وقد تحدثنا عن إسحق نيوتن بالتفصيل أما العلماء الخمسة الباقون فهم:

١ - نيكولاس كوبرنيكوس Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣)

العالم الرياضى والفلكى البولندى الأصل كان أحد أعظم علماء عصره. وهو أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جسم يدور، ويعتبر هو مؤسس علم الفلك الحديث. وكان مشجعا للعلماء والباحثين على تحدى القوانين السائدة آنذاك وتقديم العلم على العقائد التقليدية. قضى كوبرنيكوس ٢٠ عاما من العمل على نظرية مركزية الشمس وكان عمله الأساسى تحت عنوان «عن دوران الأجرام السماوية» وقد انتهى من هذا العمل فى سنة ١٥٣٩، وقد ظهر عمله هذا لأول مرة فى سنة ١٥٤٣ قبل وفاته بعدة سنوات. ألقى عدة محاضرات فى روما.

عرض فيها مبادئ نظريته دون أن يثير غضب الكنيسة عليه، وعندما أكمل كتابه عن دورة الأجرام السماوية، لم ينشره خوفا من الكنيسة أيضا ولم يرَ هذا الكتاب النور إلا يوم وفاته. فى هذا الكتاب أثبت أن الأرض تدور حول نفسها وتدور حول الشمس. وأن القمر يدور حول الأرض. وأن الأرض والكواكب الأخرى كلها تدور حول الشمس. ترجع شهرة كوبرنيكوس إلى تبنيه فكرة مركزية الشمس، أما الدليل على صحة قوانين كوبرنيكوس أتت على يد كيبلر بعد ٨٠ سنة من وفاته. بعد أن حرر نظرية كوبرنيكوس من جداولها وحولها إلى قوانين.

٢ - تيكو براهِه Tycho Brahe (١٥٤٦ -١٦٠١) كان نبيلا دنماركيا ثريا وعمل كفلكى ورياضى وكيميائى، اكتشف مجموعة ذات الكرسى سنة ١٥٧٢ وألف كتاب «النجم الجديد» الذى أكسبه شهرة فى أوروبا. ولم يقتنع تيكو براهه بالتسهيلات الفلكية فى كوبنهاجن، فذهب إلى كاسل، حيث يوجد المرصد الفلكى هناك وقام برصد النجوم وتحديد مسارها، ثم عاد إلى كوبنهاجن لينشىء مدينة للرصد الفلكى أطلق عليها أورانبرج (مدينة السماء)، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعملا وعدة مراصد ومصنعا لما تحتاج إليه من آلات. ولم يكن لديه تلسكوب بالطبع، حيث كان لابد من الانتظار ثمانية وعشرين عاما حتى يتم اختراعه على يد جاليليو، على أن أرصاده هى التى قادت كبلر إلى اكتشافات عظيمة كانت فاتحة لعصر جديد. وقد سجل براهه كل يوم، ولعدة سنوات، حركة الشمس الظاهرية، وكان من أوائل الفلكيين الذين أدخلوا فى حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات، ولذلك عاود إرصاده وملاحظاته مرات ومرات. وكشف عن التغيرات فى حركة القمر ووضعها

فـــى صيغة قانون. وأدى به تدقيقه الشـــديد فى تفقـــد أحد المذنبات فى سنة ١٥٧٧ إلى الاعتقاد السائد فى العالم حتى الآن، بأن المذنبات أجرام سماويـــة حقيقية تتحرك فـــى مدارات محددة منتظمـــة، بدلا من كونها تنشـــأ فى الغلاف الجوى للأرض. ونشـــر تيكو الجـــداول الذى جمعت ٧٧٧ نجما، حددها بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة.

٣ – يوهانز كيبلر Kepler (١٥٧١– ١٦٣٠) عالم فلكى ألمانى كان أول مـــن وضع قوانين تصف حركة الكواكب بعـــد اعتماد فكرة الدوران حول الشـــمس كمركز لمجموعة الكواكب من قبـــل كوبرنيكس وجاليليو وقد جاء بعدهم بثمانية عقود. وهو أول من اكتشف أن مدارات الكواكب ليســـت فى مدار كروى كامل بل توجد فى شكل قطع ناقص له بؤرتين الشـــمس تقع فى إحداهما. اهتم كيبلر بدراسة ظاهرة انكسار الضوء وبرع فى الرياضيات بشكل كبير، واستطاع أن يحقق قوانين حساب التفاضل والتكامل. إن قوانين كبلر هى التى ســـاعدت الإنجليزى إســـحق نيوتن على اكتشاف قانون الجذب العام حيث بينت قوانين كبلر أن هناك قوة تجاذبية بين الكواكب.

٤ – جاليليـــو جاليلـــى Galileo Galilei (١٥٦٤– ١٦٤٢) هـــو عالم فلكى وفيلســـوف وفيزيائى إيطالى، ولد فى بيزا فى إيطاليا ونشـــر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أســـس فيزيائية، فقام أولا بإثبات خطأ نظرية أرســـطو حول الحركة ومركزية الأرض للكون، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة. كان جاليليو قد دافع عن نظرية كوبرنيكوس بخصوص أن الشمس ثابتة والأرض والكواكب تتحرك حولها. واستاء قساوسة الفاتيكان لأن ذلك مخالف لما جاء فى الإنجيل بأن الأرض ثابتة. وكان اعتقاد رجال

الكنيسة آنذاك بأن الأرض ثابتة والشمس والكواكب تتحرك حولها. وتم اتهام جاليليو بالخروج عن تعاليم الإنجيل والكنيسة.

وفى سنة ١٦١٥ بدأت محاكمة جاليليو بأن أصدر القسيس باولو أنتونيو فوسكارينى كتابا أراد أن يثبت به عدم صحة الاستنتاجات الفلكية لكوبرنيكوس وأنها لا تتطابق مع ما جاء فى الإنجيل. وبناءا على ذلك أنشأت السلطات البابوية لجنة تقصى الحقائق ومنعت عدة مخطوطات عن الاستنتاجات الفلكية لكوبرنيكوس وأخرى ليوهانيس كبلر. إلا أن كتاب كوبرنيكوس الأصلى الذى نشر عام ١٥٤٣ لم تمنعه الكنيسة وإنما منعت تداوله، وحفظ حتى عام ١٨٢٢ فى مكتبة الفاتيكان.

وفى سنة ١٦٣٢ اتهم جاليليو بعدم الطاعة، وفى روما حكمت عليه المحكمة عام ١٦٣٣ بأنه يعترض على ما جاء فى الإنجيل، وتم اتهام جاليليو بالاشتباه بالهرطقة، وحكم عليه بالسجن، وفى اليوم التالى خفف الحكم إلى الإقامة الجبرية، ومنعه من مناقشة تلك الموضوعات، وأعلنت المحكمة بأن كتاباته ممنوعة. ومنذ ذلك اليوم اعتكف جاليليو جاليلى فى بيته وأمضى به بقية حياته وحافظ على عدم نقاش نظام كوبرنيكوس علنا. واهتم فى عمله بدراسة حركة أقمار المشترى واتخاذها كأداة لقياس الزمن من أجل حل مشكلة خطوط الطول، ولكنه لم ينجح فى تفسيرها. ثم حول التلسكوب إلى الميكروسكوب، وكان يراقب الأشياء بالمجهر مجرد مراقبة ولكن من غير اهتمام حقيقى. فى تلك الأثناء كتب جاليليو كتابا بعنوان «علمان جديدان». وفيه كتب عن الكينماتيكا وهى علم حركة الغازات، وكتب عن «صلابة المادة» ولقد مدحه أينشتين كثيرا. وسمى جاليليو جاليلى «أبا العلم الحديث».

اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بخطئها فى عام ١٩٣٩ وقام البابا بيوس الثانى عشر بعد أشهر قليلة من ترسيمه لمنصب البابوية بوصف جاليليو «أكثر أبطال البحوث شجاعة». وفى عام ١٩٩٢ قام البابا يوحنا بولس الثانى بالتعبير عن الندم تجاه الطريقة التى ووجهت بها أعماله. وأعلن الاعتراف بالخطأ التى ارتكبته الكنيسة الكاثوليكية. وفى مارس ٢٠٠٨ قام الفاتيكان بإتمام تصحيح موقفه تجاه جاليليو بوضع تمثال له داخل جدران الفاتيكان. وفى ديسمبر من العام نفسه أشاد البابا بندكتيوس السادس عشر (ألمانى الجنسية) بمساهماته فى علم الفلك أثناء احتفالات الذكرى الـ ٤٠٠ لأول تليسكوب عرفته البشرية على يد جاليليو جاليلى.

اختلاف علماء الشرق

هذا هو الخلاف وتلك هى موضوعاته فى بلاد الغرب، أما فى بلاد الشرق فالخلاف ممكن أن يكون على أشياء لا يمكن تصورها. حاورنى أحد الأشخاص بأنه كيف تعتقد أن الشمس مركز الكون، وأن الأرض كروية، وأنها تدور حول نفسها كما تدور حول الشمس، بل تقوم بتدريس هذا للطلبة وتشوش عقولهم، وأخذ يذكر أسانيده التخيلية أحيانا والدينية أحيانا أخرى عن كون الأرض مركز الكون ومنبسطة وليست شبه كروية، وبعد أن علمت أنه حامل لدرجة البكالوريوس، حزنت كثيرا أن يكون هذا مستوى خريجى الجامعات. هذا الأمر تكرر كثيرا، من تلك المرات كان لطيار مدنى يحمل الجنسية السورية، قال لى أن الأرض منبسطة وليست كروية كما أراها من السماء، وكان من المستحيل إقناعه. وأحيانا كانت تحول لنا أكاديمية البحث العلمى كتبا

مقدمة للأكاديمية على أساس أنها براءات اختراع بأن الأرض مركز الكون وباقي ما في السماء هي مصابيح لخدمة الإنسان والحياة على سطح الأرض المنبسطة.

والأكثر غرابة من يعتقدون في تأثير الأبراج على حياة البشر ومستقبلهم والغيب وقراءة الطالع ومن طلع ومن نزل وهل محبوس في أي طالع. كان هذا الاعتقاد مقبولا في عصور التخلف منذ مئات السنين أن يكون هناك اعتقاد بين التنجيم وبين العلوم الأساسية مثل علم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء. ولكن الآن وبعد هذه الحضارة والتقدم العلمي فإنه من غير المقبول الخلط بين العلم والخرافة. في القدم كان يعتقد البعض أن طبائع البشر ومستقبلهم يمكن التنبؤ بها عن طريق تقسيم البشر إلى أربعة أقسام هي قسم نارى أو هوائى أو ترابى أو مائى. وقد جاء هذا التقسيم استنادا إلى بعض النظريات الكيميائية القديمة التي كانت تعزو أن كل ما هو موجود في الكون لا يخرج عن تلك المواد الأربعة. وأخذ الذين يعتقدون ذلك بتقسيم طبائع البشر حسب طبيعة مادة كل قسم بمعنى أن النارى يكون ذكيا وعصبيا ولكن سريع الغضب. والترابى قوى الشخصية له مهابة عند الآخرين وقوى الإرادة. وهكذا.

وكان هناك أيضا اعتقاد أن ثمة علاقة بين الأبراج الاثنى عشر التي تأتي من دوران الأرض حول الشمس في١٢ شهرا. وكل شهر تقع الأرض في مجموعة نجمية أو مجرية معينة. والبعض من مروجي الجهل والتخلف منذ القدم وجدوا أن ميلاد كل فرد في برج يجعل التنبؤ بمستقبله ممكن، وكذا قسموا أصحاب كل برج من حيث تاريخ الميلاد إلى طبائع معينة يشترك فيها أقرانه من مواليد هذا البرج،

وسمى بعد ذلك هذا النحو بالتنجيم. إن عملية ربط علم من العلوم الأساسية مثل علم الفلك بالخرافة والتنجيم لجريمة قد تجر المجتمع إلى التخلف والجهل، فعلم الفلك هو القاطرة التى تجر التحضر البشرى منذ فجر التاريخ، فقد كان لعلم الفلك الفضل فى معرفة الحساب بغرض عد النجوم وحساب المثلثات لمعرفة مواقعها، كما أن معرفة تركيب الذرة فى العصر الحديث وما نتج عنه من بدايات التكنولوجيا الحديثة قد عرفت من خلال الرصد الفلكى لطيف الشمس وانزياح خطوط الطيف. والتطور المذهل الآن فى وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية وبالأقمار الصناعية ما هو إلا ناتج من نواتج عصر الفضاء الذى بدأه علماء الفلك بفك قوانين الجاذبية ودراسة الكون. وهل التطور فى وسائل التصوير ما هو إلا ناتج من نواتج تطوير وسائل التصوير الفلكى عبر الأقمار الصناعية؟ ناهيك عن التقدم المذهل بمستويات الكمبيوتر والإنترنت الحالى، ما هو إلا ناتج من نواتج تطوير تكنولوجيات ارتياد الفضاء. وببساطة يمكن القول إن كل العلوم تضافرت من أجل الصحوة الحالية وغير المسبوقة فى تاريخ البشرية، وغالبا ما يكون علم الفلك هو القائد والبادئ فى النظرية والتجريب والمشاهدة. وكان هذا منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا.

وعند استعادة ما جرى عبر التاريخ نجد أن ارتباط جميع أنواع العلم المختلفة، وليس علم الفلك وحده، بالخرافات وقراءة الغيب كان موجودا، نتذكر بيت الشعر المشهور للشاعر العباسى أبى تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ

فى حدهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

بيضُ الصَّفائحِ لاَسودُ الصَّحائفِ
فى مُتُونِهنَّ جلاءُ الشَّك والريَبِ
والعِلْمُ فى شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً
بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لافى السَّبْعَة الشُّهُبِ
أَيْنَ الروايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا
صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومنْ كَذِب

وفية يصف الشاعر أن السيف والجيش أصدق من الكتابة والكتب وقد هزم العلم والكتب والمنجمين. وهذا يدل على الاعتقاد السائد أن التنجيم والعلم كانوا شيئا واحدا فى العصور الوسطى.

الآن يجب على المجتمع ألا يعطى الفرصة لمن يعيشون بيننا بعقول العصور الوسطى، ألا يطرحوا تلك الأفكار المدمرة ويؤثرون بها على البسطاء من الناس. بل أحيانا كثيرة تستخدم تلك الوسائل للنصب على المجتمع وتجميع ثروات من ذلك. يجب مساعدة المجتمع على تغييرعقولهم وفكرهم بأسلوب علمى حتى ينصلح أحوال الوطن.

ومن مصادر الاختلاف أيضا فى بلادنا هو هل العلاج بالبخور أحسن من العلاج بالأعشاب أو بالحجاب أو بالكى أو ببول الإبل أحيانا أخرى. وتجد الخلاف على أشده، وممكن أن تجد هذا فى وسائل الإعلام المرئية أو فى مساحات على صفحات الصحف والمجلات حتى بعض المؤلفات لبعض المؤلفين الذين يحيون بيننا الآن. ولكن بعقول العصور الوسطى. هذا هو مستوى الخلاف ومستوى موضوعات الاختلاف عندنا. والغريب أن الإعلام بأغلب أنواعه يتسع لمثل هذه المهاترات

وتـرى بعينك كيف يخـرج الجن من الإصبع الأكبر للقدم اليسـرى من الشخص الذى لبسه هذا العفريت الأكتع.

فـى أوائـل القرن العشـرين، حدث تصادم فـى الآراء فى مجتمعنا وصل أحيانا إلى حد تكفير كاتب كبير مثل د. طه حسـين بسبب كتابه «فى الشعر الجاهلى»، ولكن تمت تبرءته أمام المحاكم. حدث هذا أمام محاكم شـرعية، وتم بهذا الحكم سن قانون لحرية التفكير وحرية الفكر فى بدايات الدولة الليبرالية المصرية التى بدأت بعد انهيار دولة الخلافة سـنة ١٩٢٤ لتسـتمر تلك الدولة حتى سـنة ١٩٥٢، قبـل أن تتحول إلى دولة عسـكرية يحكمها العسكر بلباس عسكرى أحيانا ولباس مدنى أحيانـا أخرى. وخاصة منهم من اسـتغنى الجيش عـن خدماته فيتولى مناصب مدنية لإدارة شؤون البلاد.

ومنذ أكثر من مائة عام أيضا اختلف صديقان حول ما إذا كان آدم رسـولا أم لا، ورفض أحدهم أن يكون آدم رسـولا حيث أنه لم يكن هناك بشـر غيره فى الأساس، وقام صديقه برفع قضية أمام المحاكم الشـرعية لإثبات كفر صديقه ولكن المحكمة ومنذ أكثر من مائة سنة رفضـت تلك الدعـوى، وقالت لهم اعملوا لصالح هـذا الوطن أفضل من التناحر.

ومنذ حوالى ٥٠ سنة رفع ضابط شرطة دعوى بمصادرة وحرق كل نسخ كتـاب ألف ليلة وليلة، بدعوى وجود عبارات جنسـية، وقد نجح فى إصدار حكم من الدرجة الأولى، ولكن فى الاستئناف تم إلغاء هذا الحكم. أمـا منـذ أكثر من ١٥ سـنة، فقد تمكن رجال يحسـبون على الجامعة وعلى البحث العلمى الحر فى تكفير أحد زملائهم من الباحثين بإحدى

كليات الآداب، فى واقعة غير مسبوقة، ليبدأ بعدها الانحدار إلى أسفل وبسرعة مذهلة أوصلتنا لما نحن فيه الآن، وقام آخرون برفع قضايا للتفريق بينه وبين زوجته على أساس أنه خرج عن الدين، وبدأ مسلسل محاكم الحسبة التى كانت منتشرة فى العصور الوسطى. إنه التفكير الظلامى على أعتاب القرن الواحد والعشرين. ماذا حدث لنا، أهى هجمة تخلفية من قوى الظلام الجاثمة حولنا، أم إنه مد عشوائى قد نبت خطأ فى تلك الفترة؟

فى كتاب بعنوان «مصر التى لا تعرفونها» لمؤلفه د. وسيم السيسى، أخذ فى الدفاع الحار عن مصر الفرعونية من بعض التهم المنتشرة الآن عن تلك الحضارة الرائدة. وفى دفاعه قال إن المصريين القدماء كانوا يعبدون الواحد الأحد، ودليله على ذلك الكتابة على الهرم الأكبر «أنا واحد ليس لى كفوا أحد». فهل عبادة الواحد الأحد هى التى جعلتهم يبنون تلك الحضارة العظيمة؟. لكن من المعلوم أن قاطنى المنطقة العربية كلهم يؤمنون بالله الواحد الأحد، رغم هذا لا يوجد تقدم أو تطور عندهم. ونفى الكاتب أن يكون المصرى القديم قد جعل من النيل إلها وسرد الكثير من الأدلة على ذلك. وتطرق الكاتب فى كتابه إلى فن التحنيط ومعرفة نوع الجنين فى بطن أمه قبل الولادة، حتى أن موضوع الهندسة الوراثية كان للمصريين القدماء لهم باع فيه. ورغم أنه يسرد حقائق وأسانيد علمية من أجل الدفاع عن الحضارة المصرية القديمة وكأن تلك الحضارة مدانة أو عليها تحفظ. تلك الحضارة التى أذهلت العالم حتى يومنا هذا تحتاج فى مجتمعاتنا لأحد يدافع عنها، تلك الحضارة التى سئم الغرب من البحث ورائها فى فن التحنيط ومازال لغزا حتى اليوم، وتعامد الشمس

على وجه الآلهة فى معبد رمسيس الثانى بأبو سمبل، لم نقدر على فك طلاسمه حتى يومنا هذا.

ولكــن يمكن القول إن الكاتب على حق لأن هناك نوعا من التغريب لتلــك الحضــارة الآن. وحتى ذلك الدفاع مثل الحــرث فى المحيط فلا سامعا ولا قارئا ولا مستجيبا. لأن كلمة فراعنة الآن وفى عقول الكثيرين مرتبطــة بالكفر والظلم والطغيان، ومن يريــد أن يغير ذلك فإنه يتعرض للوم الشديد. هل رأيت شعوبا تلعن أجدادها مثلنا، حتى تاريخنا القديم درجــة الخلاف والاختلاف فيه تصــل إلى حد النقيض. وحتى تاريخنا الحديــث أيضا درجة اختلافنا فيه تصــل إلى حد النقيض أيضا. عندنا زكام تاريخــى فلا نرى تاريخ أجدادنا على حقيقته. والســبب الحقيقى فى هذا الزكام التاريخى، الذى هو الجهل، هو محاولة لتغريب الوطن، أو حرقه أو حرثه حتى يصلح للزرع الجديد الآتى من الشرق أو الغرب. إن تاريــخ مصر الفرعونــى إرث جميل يجب أن يكــون لنا فيه الفخار والقدوة الحسنة من أجدادنا ولا نكرههم أو نلعنهم. إننا فى زمان صعب نشب فيه الانهيار، فإلى متى، ومتى نتحرر من أفكار دمرت كل جميل فى حياتنا؟!

فــى رحلتى لمدينة ميلبورن باســتراليا فى يوليــو ٢٠١١ لحضور مؤتمر رقم ٢٥ للاتحاد الدولى للجيوفيزياء، راعنى هذا الشــموخ الذى يحيط باســم مصر هناك، كل الإعلانات فــى المؤتمر الذى حضرته، كانــت عن توت عنخ آمون، تحمل صوره وصور مصر فى كل مكان، ملــك مصر الخالد تربع على عرش تلــك البلاد، فى متحف ميلبورن الــذى يحوى معرض توت عنخ آمون تجد الطوابير بالســاعات لنيل

شـرف الدخول، حتـى مؤتمرنا وهو الدورة رقـم ٢٥ للاتحاد الدولى لجيوفيزيـاء والمسـاحة، والذى كان يحضره حـوالى ٤٠٠٠ عالم من شـتى بقاع الأرض كان كل همهـم توفير الوقت لزيارة المتحف ورؤية ملكنـا الخالد. هؤلاء العلماء الأفذاذ يقفـون حيارى من روعة وشموخ ما يرون من حضارتنا المصرية القديمة العظيمة. وأشـير هنا أن المؤتمر يتكـرر مـرة كل أربع سـنوات فى مدينة مختلفـة وبلد مختلف. إن اختيـار المدن التى يعقد فيها يكون بالانتخاب بين المدن المنافسـة، وقد تقدمت مدينة ميلبورن، أثناء دفاعها لنيل شرف التنظيم، بملف وعرض سينمائى لإمكانات ميلبورن فى استضافة المؤتمر رقم ٢٥، كان مـن ضمن العرض أن مدينة ميلبورن سـوف تحوى معرض توت عنخ آمـون أثناء فترة انعقـاد المؤتمر، وكانت تلك نقطة فاصلة لقبول ملف مدينة ميلبورن لتنظيم هذا الحدث الكونى العلمى الرائع. هم يتاجرون ببضاعتنا، ونحن نحتقر بل نلعن بضاعتنا. هل تتصور أنه من الممكن اسـتضافة القاهرة لأحد تلك المؤترات أم أنه حلم بعيد المنال أو يكاد يكون مستحيلا فى الوقت الحالى؟!

كان عنوان هذا المؤتمر هو «الأرض على الحافة» وكانت المحاضرات عن التغير المناخى وزيادة منسـوب ميـاة البحار والمحيطات، والزلازل والبراكين والتسـونامى، وثورات الشمس، وغزو الفضاء، ودراسة الأرض مـن الفضاء، إلى آخره من الموضوعات التى كانت تقول للعالم إن الأرض وحمايتها هو هدفنا، نحن نخطط للعالم ومسـتقبله. تلك هى المؤتمرات الدولية وهذا هدفها، وليس مثل مؤتمراتنا التى تكون تقليدا للغرب لا أكثر ولا أقـل. ولقـد قدم مؤلف هذا الكتاب ورقـة بحثية عن التغير المناخى

المصاحب للانفجارات الشمسية الدورية، وكيف أن تلك الانفجارات الدورية لها تأثير دورى على الغلاف الجوى الأرضى وعلى الأرض ككل وخاصة أن تلك المواد التى تخرج من الشمس وإشعاعاتها وتصل إلى الأرض تكون مشحونة وتؤثر بصورة مباشرة على أجهزة الملاحة الجوية وسفن الفضاء وعلى الاتصالات بصورة كبيرة، لحد التدمير الكامل فى بعض الأحيان. وعملية التنؤ بها هام جدا لحماية الثروة البشرية، وأيضا لحماية الإنسان والحيوان والنبات على سطح الأرض.

○○○